الدرس الثاني عشـر/ الاتجـــاه التفكيـكـــي:

إذا كانت البنيوية قد راهنت على أهمية البنية ونظامها الشكلاني المغلق، فكان ذلك مطية لوصمها بالتجريد والاختزالية والخروج عن المسار التاريخي... وكان مبررا كافيًا لظهور حركة نقد جديدة تختلف عنها، ولكنها تتعاطف معها سميت ما بعد البنيوية، وهي تدعو ـ ضمنيا ـ إلى تجديد الدّم في الروح البنيوية المرهقة.

ويعتبر **"جان جاك دريدا"** أول منظر الذي أرسى معالم (التفكيكية) في أوائل الستينيات من القرن العشرين عبر ثلاثة من كتبه صدرت في سنة واحدة(1967). وهي: **الكتابة والاختلاف** (LECRITURE ET DIFFERENCE)، و**الصوت والظاهرة** (LA VOIX ET LE PHENOMENE)، و **في علم الكتابة** (DE LA GRAMATOLOGIE) .

ومن حيث هي قراءة مزدوجة، فإنّها تسعى إلى دراسة النص مهما كان دراستين: دراسة تقليدية أولا لإثبات معانيه الصريحة، ثم تقويض وتفكيك ما تصل إليه من نتائج في قراءة ثانية، وصفت بأنّها معاكسة، تعتمد على ما ينطوي عليه من خلال هذه القراءة المزدوجة إلى إيجاد شرح بين ما يصرح به النص وما يخفيه.

**ـــ وتتكئ التفكيكية على جملة من الأسس النظرية ومقولات يمكن حصرها عبر العناصر الآتية :

1/ موت المؤلف وميلاد القارئ : حظي المؤلف بمكانة مرموقة في الفكر النقدي التقليدي، إذْ يعدّ المرجعية الأولى في تحليل النص الأدبي على عكس القارئ الذي يعدّ مجرد متفرج على النص، لكن تغيرت الأمور وانقلبت وأصبحت السلطة للقارئ بدلا من المؤلف. إذْ أقرّ**"**رولان بارت**"** أنّ<< المؤلف ليس أكثر من ناسخ، ينهل من مخزون معجمي موروث ويتحرك ضمن فضاء ثقافي مشاع، خصوصًا وأنّ اللغة هي التي تتكلم وليس المؤلف، فكل نسبة إليه تعني إيقاف النص وحصره وإعطائه مدلولا نهائيًا، إنّها إغلاق الكتابة>>. معناه إذْ تنتهي مدة صلاحية المؤلف مباشرة بعد تدوينه للنص الأدبي، وهي في الوقت نفسه ـ بهذه الرؤية ـ تبشير بميلاد القارئ، فيصبح هو المنتج الحقيقي للنص، بعدما كان مستهلكا في أحسن الأحوال، فهي تسعى بذلك إلى تحرير النص المفتوح من قيد القراءة الأحادية المغلقة القاتلة.

وبتنفيذ أسطورة المؤلف وإعلان موته يكون**"** رولان بارت**"** قد بَشّر بميلاد القارئ الذي هو مرهون بموت المؤلف، وقائم على أنقاضه، وعصر القراءة، حيث يصبح القارئ منتجًا للنص، حيث يرى **"**جاك دريدا**"** أن التفكيكية بناء وهدم في الوقت نفسه من خلال قوله هي<< **حركة بنائية وضدها في الآن نفسه، فالبناء نقيض الهدم**>>.

2/ القراءة والكتابـة : أعلنت التفكيكية موت المؤلف وميلاد القارئ إذْ تحولت السلطة من المؤلف إلى القارئ، وبذلك تكون قد أعلت من قيمة القراءة، فالقارئ هو:<< الفضاء الذي ترتسم فيه كل الاقتباسات التي تتألف منها الكتابة دون أن يضيع أي منها ويلحقه التلف... لقد أصبحنا نعلم أنّ الكتابة لا يمكن أن تنفتح على المستقبل إلا بقلب الأسطورة التي تدعمها، فميلاد القارئ رهين موت المؤلف>>. وكان هذا الاعتقاد إرهاصًا بظهور دراسات جديدة تنضوي تحت لواء ما أصبح يسمى (نظرية القراءة) التي تهتم وتتقصي موضوع القراءة ومستوياتها وأنواعها،

وبهذا تكون التفكيكية قد أعلت من شأن القراءة، كما أنها تعنى عناية فائقة بالكتابة. فدعا "جاك دريدا" من خلال كتابه(في علم الكتابة) إلى الكتابة الخالصة التي تقتل الكلام وتقوم على أنقاضه.

وتتلازم القراءة مع الكتابة في الدرس التفكيكي، بحيث ينتج باستمرار ولا يتوقف بموت كاتبه، ولهذا يؤكد"جاك دريدا"على<< الكتابة بدلا من الكلام لأنها تنطوي على ضرورة البقاء بغياب المنتج الأول، فحين يتغذر ذلك بالنسبة للكلام إلا في نطاق محدود جدًّا ظهر حديثًا بفضل شرائط التسجيل الصوتي>>. إلا أن مفهوم الكتابة ـ في ضوء التصوير التفكيكي ـ يتجاوز الدلالة التدوينية المبسطة إلى مفهوم أوسع يقوم على أن النص المكتوب نص مفتوح متغير متجدد باستمرار، وفي وسع القارئ أن يعيد كتابته بصورة تأويلية متغيرة مع كل قراءة.

3/ اغتيال الدلالة الواحدة وتشتيت المعنى: تسعى التفكيكية إلى قتل القراءة الأحادية والدعوة إلى تعددية القراءة، فقد حطَّمَ "جاك دريدا" الافتراض الداعي بامتلاك النص معنى ثابت<< فالمعنى الثابت أمر مستحيل>>. إذْ المعنى يتحرك وفق حركة اللغة ذاتها، فيصبح تأويل المعاني حركة لا تنتهي ، ولا تستطيع أن تصل إلى مدلول نهائي مطلق، لا أحد يضمن المعنى الذي يسكن النص والذي يشكل حضوره ، فالصلة بين المعنى والنص مقطوعة ... فلا مجال للبحث عن الدلالة الواحدة لنص ما ـ في ضوء التفكيكية ـ فالنص مفتوح على المعاني المتجددة بتجدد القراءة و التأويل إلى مَا لاَ نهاية، و بفعل هذا التفكير النقدي الجديد تحرر النص الأدبي من أسْر القراءة الأحادية الداعية إلى القول بالمعنى الواحد منتقلا إلى عهد التعددية المعنوية (تعدد المعاني/ تعدد التأويلات) .

4/ الاختـــلاف: يعتبر مفهوم الاختلاف من أهم مرتكزات التفككية، ويعني الاختلاف عند"جاك دريدا" << الإزاحة التي تصبح بواسطتها اللغة أو الشفرة أو أي نظام مرجعي عام ذي ميزة تاريخية عبارة عن بنية من الاختلافات ، فليس هناك حضور مادي للعلامة ، هناك لعبة الاختلاف فقط ، فالاختلاف ينتهك ويجتاح العلامة محوّلاً عمليتها أثرا أو شيئًا وليس حضورا ذاتيًا لها>>. فاللغة تحمل جملة من الاختلافات، فليس هناك حضور للمعنى بل المعنى يكون مختلفًا دائمًا، وإن صح التعبير غائبا . ويعبر" تيري إيغلتون" عن الإختلاف بقوله << إن المعنى غير موجود في الإشارة اللغوية، مادام المعنى الإشارة اختلافها عن الأشياء الأخرى ، فإن معناها أيضا ، وبتعبير آخر غائب عنها. >> إذن كل علامة تحيلنا إلى علامة أخرى والمعنى مختلف وغيرثابت، كما أن المعنى مبني على الاختلاف يستمر في الغياب ويرفض الحضور.

***ـــ الإتجـــاه التفكيـكـي في الخطاب النقدي الجزائـــري :**

يعتبر الدكتور"عبد الملك مرتاض"هو أول من طرق باب النقد التفكيكي في نهاية الثمانينيات من القرن العشرين، ويعتبر كتابه(ألف ليلة وليلة ـ تحليل سيمائي تفكيكي لحكاية جمال بغداد) الذي نشره في سنة 1989 بالعراق، وأعيد طبعه في الجزائر سنة 1993، أول دراسة تفكيكية جزائرية، ثم أردفه بكتب لاحقة تنهج نهجًا مركّبًا(سيمائيًا، تفكيكيًا) مثل:(آ.ي ـ دراسة سيمائية، تفكيكية ـ لقصيدة أين ليلاي) للشاعر محمد العيد آل خليفة، والذي نشره سنة (1912)، وكتاب (تحليل الخطاب السردي ـ معالجة تفكيكية ـ سيمائية مركبة) لرواية " زقاق المدق" لنجيب محفوظ سنة 1995 .

إن الدكتور" عبد الملك مرتاض" لم يجد حرجًا في تبني التعدد المنهجي ، مسلّمًا بأن<< التعددية المنهجية أصبحت تشع في بعض المدارس الغربية، وترى أن لا حرج في النهوض بتجارب جديدة تمضي في السبيل بعد التخمة التي مُنِيَ بها النقد من جراء المذهب تلوى المذهب خصوصًا في هذا القرن>>، وليس الانتقال من منهج إلى آخر في أعمال نقدية منفصلة سذاجة << إنّ من السذاجة أن نزعم أننا نبلغ من النص التي نود قراءته منتهاه .. من أجل ذلك تجنح التيارات

النقدية المعاصرة إلى ما يطلق عليه في اللغة النقدية الجديدة (التركيب المنهجي) >>.

لكن هذا لا يعني أن نغض الطرف عن تلك الجهود التي قدمها الدكتور" الطاهر رواينية " بعنوان (الكتابة و إشكاليات المعنى ـ قراءة في بنية التفكك في رواية تجربة في العشق) للطاهر وطار، وقد أفاد فيها بعض الشيء من بعض المفاهيم التفكيكية (الكتابة ، القراءة ، التصدع السردي ، التناص...) التي استقاها من" ميشال فوكو" و" رولان بارت" ومن كتاب(المعنى الأدبي من الظاهرية إلى التفكيكية) لوليام راي . فضلا عن ترجمة الشاعر" أزراج عمر" لثلاثة نصوص تفكيكية من النقد الأنجليزي ، مثلما يمكن العثور على بعض المفاهيم التفكيكية موزعة في بعض كتابات الناقد "بختي بن عودة" في دراسته (انسحاب الكتابة) وغيرها من المحاولات الأخرى . ولكن الجدير بالملاحظة أن الاتجاه التفكيكي لم يحض كثيرا في الدراسات الجزائرية مقارنة مع الاتجاهات السابقة له.